أ. بلال حسن التل
رئيس مركز دراسات الوحدة الإسلامية - عمان
رئيس تحرير جريدة "اللواء"

أمتنا بين عافية المذهبية واعتلال الطائفية

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يحتاج القارئ المتبصر لتاريخ أمتنا الإسلامية إلى كبير عناء ليكتشف عدداً من الشواهد التي تتكرر لتدل على حال الأمة في كل حقبة من حقب تاريخها قوة أو ضعفاً. تقدماً أو تخلفاً، عزاً أو ذلاً، ومن أبرز هذه الشواهد الدالة على حال الأمة، وحدة أبنائها باعتبارها تكليفاً شرعياً لهم ترتبط بتحقيقها الكثير من التكاليف الشرعية الأخرى.

فعندما تفرط أمتنا بوحدتها تفرط بالكثير من تكاليف دينها أولاً. واحتياجات دنياها ثانياً، لأن الوحدة سر منعة الأمة، وقدرتها على القيام بمهامها الرسالية، وأولها تبليغ الإسلام للناس كافة، ثم الشاهدة عليهم. وشرط الشاهد أن يكون حاضراً فاعلاً.

والأمة التي تفقد وحدتها تفقد قدرتها على الفعل، ومن ثم الحضور. لذلك أجاز فقهاء الأمة قتل الخارج على الجماعة المفارق لصفها. ولا نبالغ إن قلنا أن تفريط المسلمين بوحدتهم هو أول ثمار عدم فهمهم لدينهم، وسيطرة الجهل على عقولهم

وأفهامهم. لأن الإسلام هو دين التوحيد ابتداءً ودين الوحدة انتهاءً. فلا تكاد شعيرة من شعائره تخلو من تحريض على الوحدة، وتربية لأتباعه عليها. فالصلاة الجامعة هي أفضل الصلوات. والصيام عبادة وحدوية خاصة من حيث المواقيت. وكذلك الحج.

وهذه الدلالة من دلالات شعائر الإسلام لا تغيب عن أذهان المسلمين إلا إذا قصُرت هذه الأذهان عن فهم دينها، بفعل الجهل الذي يسيطر عليها ويتحكم بمساراتها. والجهل أخطر آفة تصيب الأمة، لأنها أول ما تجهل نفسها ومعتقدها. كما هو حال المسلمين في واقعهم المعاصر. حيث وصل بهم الجهل حتى جهلوا أبسط قواعد دينهم وتعاليمه. ومنها قاعدة التعارف بين البشر امتثالاً لقوله تعالى:(إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقد بلغ الأمر بالمسلمين أن بعضهم صار لا يعرف بعضهم الآخر معرفة مباشرة. واستبدل هذه المعرفة المباشرة المأمور بها شرعاً، بمعرفة مشوهة من خلال طرف ثالث. وصار المسلمون يبنون الكثير من أحكامهم على بعضهم البعض ومواقفهم من بعضهم البعض، على السمع من طرف ثالث في كثير من الأحيان.

وبهذا الجهل للكثير من قواعد الإسلام، حول المسلمون الكثير من مزايا دينهم إلى عيوب ومثالب. وحولوا مكونات الصحة والعافية في بناء الأمة المادي والذهني إلى أسباب علة واعتلال. فقد صارت مواردها الطبيعية مصدر شقاء بسبب السفه في استخدام هذه الموارد حيناً، أو لأن هذه الموارد أغرت العدو المستعمر فاستباح بلاد المسلمين، ومواردهم بسبب ضعفهم وعجزهم عن حماية هذه الموارد أحياناً كثيرة. هذا على الصعيد المادي.

أما على الصعيد الذهني والفكري، فإن الجهل جعل المسلمين يحولون مزايا دينهم إلى آفات قاتلة. من ذلك ان الإسلام ومن منطلق احترامه للعقل وحثّه على إعماله في آيات الله الكونية، ومنها نصوص القرآن، جعل الاجتهاد مصدراً من مصادر التشريع وبفعل الاجتهاد نشأت المذاهب الإسلامية نتيجة لاختلاف الاستنباط من النصوص،

والاختلاف في فهم وتفسير المواقف والأحداث، وهو اختلاف سببه التفاوت في القدرات العقلية. كذلك الاختلاف في البيئات والمعارف والعلوم، عند العلماء والمجتهدين الذين تصدوا لمهمة استنباط الأحكام الفقهية.

لقد قام الاجتهاد الإسلامي على أيدي الأئمة الفقهاء من العلماء، لبيان أحكام العبادات والمعاملات، استنباطاً من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بل وعندما لا يوجد نص قرآني أو نبوي. وذلك من خلال مصادر التشريع الإسلامي الأخرى وفي طليعتها الاجتهاد. وقد أسس هؤلاء العلماء العظام مدارس فقهية، تحترم مكانة العقل في ضوء الشريعة.

لقد نشأت المذاهب الفقهية في الإسلام كثمرة من ثمار الاجتهاد، الذي هو باب من أبواب التشريع الإسلامي. بل لعله أكثر المصادر إثراء للتشريع. كما أنه من أكبر البراهين على احترام الإسلام للعقل البشري، وحثاً على توظيفه في استكشاف ما في الكون من آيات، وما في النصوص من أحكام. من هنا احتل المجتهدون مكانة مميزة في تاريخ الإسلام وفي ضمائر المسلمين، الذين يطبقون الكثير من أحكام دينهم، وفق ما استنبطه هؤلاء المجتهدون من النصوص القرآنية، ومن السنة النبوية فيما صار يعرف في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والفقه الإسلامي "بالمذاهب" التي تؤشر على حالة صحية عقلية ووعي ناضج عند المسلمين.

ورغم أن الكثير من أئمة المذاهب عاصر بعضهم بعضاً بل وتتلمذ بعضهم على بعض. فإن اختلافهم بالرأي والاستنباط لم يفسد للود قضية بينهم. فكانت علاقاتهم مع بعضهم البعض مبنية على الاحترام والتوقير. وكان أحدهم يصلي وراء الآخر، ولا يمنع أحداً من الأخذ برأيه وحكمه إن اقتنع به.

وفي إطار علاقة الاحترام والتوقير المتبادل بين أئمة المذاهب وعلمائها ومفكريها. بمن فيهم علماء السنة والشيعة. كان كل منهم يأخذ عن الآخر مثلما فعل الإمام أنس مع الإمام جعفر الصادق. ومثلما تتلمذ عدد كبير من أهل السنة في عصرنا هذا على

كتب الشهيد محمد باقر الصدر. كما أفتى الأزهر الشريف بجواز التعبد والإفتاء وفق أحكام الفقه الشيعي. كذلك كان كبار علماء الشيعة أمثال الشيخ المفيد والشيخ الطوسي يفتون على ضوء كل المذاهب، مثلما تتلمذ عدد كبير من علماء ومفكري الشيعة في عصرنا هذا على تراث الإمام الشهيد حسن البنا وكتب الشهيد سيد قطب.

وبمثل هذا السلوك خلدوا وتخلّدت مذاهبهم، وأفكارهم وآراؤهم التي تنم عن فهم دقيق لروح الإسلام وعظمته. فقد كان كل منهم يفهم النص وفق معاييره ومقاييسه وقدراته على الاستنباط دون أن يدعي أنه يجيء بدين جديد. أو يخرج على قواعد الدين وكلياته وأصوله. أو يدعي أنه امتلك الحقيقة كلها. وهذا هو الأصل النابع من الفهم الصحيح للإسلام ولمعنى الاجتهاد وفق المعايير الإسلامية كما وضعها أئمتنا وعلماؤنا العظام. الذين احترم كل منهم الآخر واحترم اجتهاده؛ وهذا هو الأمر الطبيعي والصحي الذي يسود، عندما تكون الأمة في حالة وعي. أما عندما تصاب الأمة بالضعف والوهن والاعتلال وغياب الوعي، فإن الأمور تنقلب ويصبح الجهل والتعصب سيد الموقف. فتبنى الحواجز والموانع بين أتباع المذاهب بل داخل المذهب الواحد. وقد حفظ لنا تاريخ الأمة الكثير الكثير من الشواهد التي تدل على أن الجهل والتعصب يحولان المزايا إلى عيوب، ليس بين السنة والشيعة فقط، ولكن داخل كل منهما، من ذلك وعلى سبيل المثال أن بعض ولاة الحنابلة كانوا إذا مروا بمسجد للشافعية قالوا " أما آن لهذه الكنيسة أن تُغلق". قبل أن تُظل الأمة أزمان ساد فيها الجهل الذي ولّد الفرقة، وما نجم عنهما من تعصب، دفع بعض جهلة الأمة إلى اعتبار المذهب هو الدين. واعتبار كل من خالف مذهبه خارجاً عن الملة والدين. فنشأ فكر التكفير الذي هو ثمرة طبيعية للتعصب. بل إن التعصب الناجم عن الجهل لم يتوقف عند حدود إخراج بعض أتباع المذاهب لمن سواهم من أتباع المذاهب الأخرى من الدين كله، بل تجاوز الأمر ذلك إلى ما هو أخطر، عندما صار بعض أتباع المذهب الواحد يخرجون بعضهم الآخر من الدين بعد المذهب إن هم اختلفوا معه في مسألة من المسائل.

لقد تكررت هذه الحالة كثيراً في تاريخ المسلمين. لكن أسبابها ومظاهرها تكاد تكون واحدة. وأولها الجهل بالإسلام وعدم فهمه فهماً صحيحاً كما أشرنا. ومن ثم ما ينجم عن الجهل من تعصب يعمي عن الحق، ويهيئ التربة الخصبة للفكر التكفيري، الذي ابتليت به الأمة في أكثر من مرحلة من مراحل تاريخها، خاصة عندما يستغل السياسيون الخلافات المذهبية للحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم، من خلال إلهاء الأمة عن فسادهم السياسي وغير السياسي بالخلاف المذهبي، الذي يحول التعصب إلى آفة تبتلي به الأمة على صورة "طائفية مقيتة" ويخرجون المذهب من كونه حالة صحية إلى حالة مرضية أهم أعراضها التعصب المبني على الجهل المنتج للفرقة التي تقود إلى تحويل المذهبية إلى "طائفية مقيتة".

ويزيد من خطر الفساد السياسي على الاختلاف المذهبي، سعي السياسيين إلى إلباس الخلاف المذهبي لباس الخلاف العرقي. فيروجون أن أتباع المذهب الفلاني هم أبناء هذا العرق، وأن أتباع المذهب الفلاني هم أبناء ذلك العرق. كما يفعل بعض الساعين إلى إغراق الأمة في الفتنة المذهبية بين السنة والشيعة، في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين. حيث يروج هؤلاء، أن كل شيعي هو إيراني أو عميل لإيران. وقد فاتهم أن العرب هم الذين شيعوا إيران عندما جاء إليها علماء جبل عامل. وان نسبة عالية من العرب هم من شيعة آل البيت. تماماً مثلما أن هناك شيعة من غير العرب والفرس، ومثلما أن هناك سنة من العرب والفرس وغيرهما. لكنها أحابيل السياسة وخداعها. وسعي بعض الساسة لتحقيق مكاسبهم الشخصية حتى على حساب وحدة الأمة وقوتها. لذلك يرعى هؤلاء السياسيون الفتن المذهبية والتعصب الطائفي، ويلبسون الكثير من خلافاتهم السياسية الداخلية لباساً مذهبياً. كما يجري في لبنان والعراق، وكما يلبسون خلافاتهم السياسية مع الآخرين، نفس اللباس المذهبي. كما هو الحال في الكثير من جوانب العلاقة بين بعض الدول العربية مع إيران.

نستطيع القول: إن الأطماع السياسية وتبني بعض النظم السياسية لمذهب بعينه وقمع

غيره من المذاهب كان سبباً رئيساً من أسباب ضعف المسلمين على مدار تاريخهم كما حدث بين الصفويين والعثمانيين وبين العباسيين والفاطميين والأيوبيين.

لقد أضيف إلى الأطماع السياسية ودورها في إذكاء الفتن المذهبية، وتحويل المذهبية إلى "طائفية مقيتة" عنصر رئيس في عصرنا هذا، هو نمو الفكر القومي، وفق المنظور الغربي في البلاد الإسلامية. مما أضاف حاجزاً جديداً أمام جهود الوحدة والتقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية.

لم يقتصر العنصر السياسي ودوره في تخريب العلاقة بين المسلمين، والحيلولة بينهم وبين وحدتهم وتعاون أتباع مذاهبهم المختلفة على الأطماع السياسية الداخلية. بل لقد استثمر أعداء الأمة جهل أبنائها، بقواعد دينهم وأصوله، ليزيدوا التعصب المذهبي تأججاً بينهم. من هنا نستطيع فهم الاهتمام الغربي المبكر بدراسة التباينات المذهبية بين المسلمين. وإقامة مئات المراكز المعنية بتسليط الضوء على هذه التباينات بين المسلمين، وتحويلها إلى خلافات مزمنة، مع السعي لتأجيجها، بهدف تشويه صورة المسلمين.

لقد ساعد على نجاح مهمة هذه المراكز الغربية، حالة التبعية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي يعيشها المسلمون بفعل الهيمنة الغربية، وسعيها المحموم لمنع كل جهود توحيد المسلمين، والتقريب بين مذاهبهم، بأساليب مختلفة. من أهمها فرض العولمة وقوانينها وثقافتها على المسلمين. وإقامة مؤسسات دولية تتدخل في شؤونهم الداخلية، بل وفي أحكام دينهم سعياً لتعطيل هذه الأحكام. عبر فرض اتفاقيات ومواثيق تتناقض مع هذه الأحكام. يضاف إلى ذلك الجهود الغربية لإبقاء المسلمين في حالة تخلف علمي ثقافي وفكري ذهني.

إن هذا التخلف يشكل أرضية خصبة لنمو الفتن المذهبية والطائفية، التي تعين العدو على تحقيق مآربه في بلاد المسلمين، وأولها احتلال هذه البلاد، ومن ثم توطين أركانه فيها، وهو ما عبر عنه الصهيوني اليهودي الأمريكي مارتن أندك السفير الأمريكي الأسبق في الكيان الصهيوني المغتصب لفلسطين عندما قال "من السذاجة والغباء ان

نشغل أنفسنا بقضايا الكهرباء والماء في العراق. فالمهمة العاجلة لاستقرارنا واستمرارنا هناك هي إحياء القاعدة الاستعمارية القديمة (فرّق تَسُدْ)" وهل أكثر فاعلية من الفتنة المذهبية كآلية لتفريق صف الأمة؟.

لذلك لا نستغرب ما يفعله أعداء الأمة في العراق من تأجيج للخلاف المذهبي، رغم ان العراق لم يعرف هذا اللون من الخلافات حيث كانت العشيرة الواحدة من عشائره تتوزع بين السنة والشيعة. وهي نفس الممارسة التي مارسها أعداء الأمة في لبنان، بعد اغتيال رفيق الحريري، حيث استثمروا هذه الجريمة لإثارة فتنة مذهبية بين المسلمين في لبنان.

كل ذلك في إطار إصرار أعداء الأمة على مكائدهم غرساً للمخاوف والهواجس بين أتباع المذاهب الإسلامية وإثارة للفتن بينهم. لان الخلاف بين المسلمين، يشكل الثغرة التي يمكن ان ينفذ منها أعداء الأمة، لتكريس حالة التشرذم والانقسام الذي يضرب جهاز المناعة في الأمة. لذلك يحرص الاستكبار العالمي على إبقاء المسلمين في دائرة الفرقة والتخلف والجهل وإشغالهم بالفتن الداخلية لإلهائهم عن مخاطر عدوهم المحتل لأرضهم المسيطر على ثرواتهم.

لقد ذهب أعداء الأمة إلى ما هو أبعد من ذلك عندما سعوا وما زالوا إلى استبدال العداء بين الأمة وعدوها الصهيوني الغاصب لفلسطين بعداءٍ بين مكونات الأمة، وخاصة بين العرب وإيران. من خلال سعيهم لتأجيج الفتنة المذهبية، التي صارت سلاحاً من أسلحة العدو لزعزعة أمن واستقرار المسلمين وبلادهم، التي صار الكثير منها مهدداً بحروب أهلية على أساس مذهبي. أو حروب بينية بين الدول الإسلامية على نفس الأساس. خاصة وأن أتباع المذهبين السنّي والشيعي يمثلون البنية السكانية الأساسية لما يعرف بالشرق الأوسط. وانفجار أي خلاف مذهبي بين السنة والشيعة، يأخذ طابعاً عسكرياً لا سمح الله يضع المنطقة كلها على فوهة بركان، ويكون الرابح الأكبر فيها الاستكبار الغربي وربيبته إسرائيل. أما الخاسر الأوحد فهم المسلمون على اختلاف

مذاهبهم وأعراقهم.

ليست السياسة وحدها السبب في تحويل نعمة "المذاهب" في الإسلام إلى نقمة "طائفية"، تهدد المسلمين الذين يحولون هذه النعمة المذهبية إلى نقمة في عصور الضعف والتخلف، التي يسودها الجهل والتعصب، وتحكمها العقول المغلقة والأفهام المستعصية والقلوب المتحجرة، التي تغذي الطائفية بالأحقاد، والفتن المبنية على الأساطير والافتراءات، التي تُنمي الغلو والتطرف والجهل. لأن مما يزيد من خطر ذلك كله انتشار ثقافة منزلية تناقض جوهر الإسلام بين المسلمين فيجهل بعضُهم بعضَهم الآخر. خاصة في ظل تقاعس العلماء من مختلف المذاهب عن أداء واجبهم خاصة على صعيد نشر ثقافة التقريب بين المذاهب. ومن خلال محاربة الثقافة الاجتماعية التي تغذي الخلافات والتعصب المذهبي والطائفي.

إن من أسباب تحول المذهبية الإسلامية من نعمة إلى نقمة، ومن اجتهاد فقهي يدل على تعددية الإسلام، إلى طائفية بغيضة منغلقة على الذات رافضة للآخر، الأخذ بظواهر الكلام، والاختلاف في تفسير الأحكام والنصوص وفق الهوى. واعتبار الأقوال الشاذة علامة على المذهب كله. و"الحكم" على المذهب من أقوال خصومه، أو اعتماد الروايات الضعيفة في كل مذهب للطعن فيه. واستحضار الجوانب المعتمة من التاريخ والخلافات التاريخية بين أتباع المذاهب، مقرونة في كثير من الأحيان بإحياء تاريخ الشعوب الإسلامية قبل الإسلام والتحريض للالتفاف حول هذا التاريخ.

ويزيد الأمر خطورة إشراك العوام والجهّال والدهماء في النقاشات الفكرية والفقهية. وتجرؤ بعض هؤلاء على الفتوى. خاصة عندما يُغلّبون المذهب على الدين. والعرق على المذهب.

لقد زاد من خطورة ذلك كله، في هذا العصر، دخول وسائل الاتصال على الخط، وتخصص الكثير منها في إثارة الفتن المذهبية، وتأجيج التعصب الطائفي بين المسلمين. واقتصار جهود المسلمين على وصف الحالة وتشخيص المرض. وهي آفة خطيرة من

آفات الخطاب الإسلامي المعاصر، تتناقض تناقضاً جوهرياً مع الخطاب القرآني، الذي هو خطاب عملي تطبيقي. فكثيرة هي الآيات القرآنية التي تحث على العمل، وعلى التطبيق والممارسة العملية. ويكفي ان نتذكر قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون". لذلك فإن إخراج المسلمين من مخاطر الفتنة المذهبية والقضاء على الطائفية المتعصبة، وصولاً إلى التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية. يقتضي أن نقرن القول بالعمل، وأن نُنْهي حالة التكاذب بين المسلمين، خاصة في المؤتمرات والندوات، التي يقول المشاركون فيها داخل القاعات غير ما يقولونه خارجها.

إن أول الخطوات التي تحول بين المسلمين واختلافهم، وتحويل نعمة الاجتهاد إلى نقمة طائفية بغيضة هي ان يتمثلوا مبادئ القرآن. التي تحثهم على وحدتهم وتماسكهم. وأن يتأملوا كثيراً في دلالات النداء القرآني في الكثير من آيات القرآن الكريم "يا أيها الذين آمنوا" حيث الخطاب والتكليف للجماعة، وليس لفئة دون فئة.

يفرض على علماء الأمة استثمار الشعائر العبادية الإسلامية للتقريب بين أتباع المذاهب، من خلال التركيز على البعد الوحدوي لهذه الشعائر. مع التأكيد على حرمة دم المسلم وماله وعرضه، وهي من أهم ما أكد عليه رسول الله عليه السلام خاصة في خطبة حجة الوداع. كما أن على العلماء إبراز خطاب الوحدة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وهذا يقودنا إلى التذكر بقاعدة قرآنية هامة وهي قاعدة التعارف. فالتعارف هو طريق الفهم وإزالة اللبس. وهذه القاعدة تقود إلى قاعدة قرآنية ثانية هي قاعدة التعاون "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" لذلك فإن على المسلمين وخاصة العلماء منهم، أن يسعوا إلى تحكيم القاعدة الذهبية بينهم (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)، وجعل هذه القاعدة أساساً للعلاقة بين المسلمين عامة والعلماء خاصة. ومن ثم اعتماد الحوار على أساس الحجة والبرهان والرد العلمي على الحجة بحجة. وجعل الوصول إلى الحق هو هدف

الحوار تأسياً بالقرآن الكريم الذي حاور كل الناس بهدف إقناعهم وإيصالهم إلى الحق.

إن المطلوب من علماء المسلمين، خاصة الذين يتصدون لمهمة التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية، وصولاً إلى وحدة المسلمين، أن يرسّخوا ثقافة الحوار والقبول بالآخر بين المسلمين، تأسيساً لحوار إسلامي ـ إسلامي يتناول كل الخلافات والاختلافات، والهواجس والمخاوف، المتبادلة بين المسلمين، ووضعها على طاولة النقاش العلمي الجاد والرصين وفق جدول أولويات وتوقيت زمني، للوصول إلى صيغ نهائية، يخرج بها المتحاورون حول القضايا المطروحة على طاولة الحوار، وهذا يستدعي أن يقوم الحوار بين المسلمين على الصراحة والوضوح. وان يكون حواراً مفتوحاً دون حواجز ومواقف مسبقة وبنية صادقة، وفق المنهج القرآني والنبوي في الحوار، الذي يستهدف الوصول إلى الحق. وأول شروط الحوار الذي يهدف إلى الوصول إلى الحق التوقف عن مهاجمة أساس كل مذهب؛ لذلك فإن على العلماء والدعاة تطوير خطابهم الدعويّ باتجاه مضاد للطائفية والتعصب المذهبي وبناء القناعة لدى الجمهور بأن المذاهب وتعددها من علامات ثراء الإسلام، وتكريس مفهوم الاختلاف كرافد من روافد الاجتهاد الفقهي، الذي أغنى الفقه والفكر والحضارة الإسلامية، وأغنى التعددية في المجتمع الإسلامي، التي نحتاج لاستعادتها إلى تشجيع دراسات الفقه المقارن. لان من شأن ذلك تعزيز الانفتاح بين المذاهب وإذابة الحواجز بينها من جهة، وبين أتباع هذه المذاهب من جهة أخرى ويساعد على التقريب بينهم.

إن العبء الأكبر في الوصول إلى تحقيق هدف التقريب، بين أتباع المذاهب الإسلامية، ومنع الفتنة المذهبية، وإعادة الاعتبار إلى المذهبية باعتبارها حالة صحية، تؤكد احترام الإسلام للعقل البشري واحترام المجتمع الإسلامي للتعددية، والحيلولة دون تحول المذهبية إلى "طائفية مقيتة" تقع على كاهل علماء المسلمين من كل المذاهب. وأول ذلك أن يتعارف علماء المذاهب، ويتحاوروا حواراً علمياً، بعيداً عن الأحكام المسبقة، وأن يبحثوا عن المشتركات ليتعاون المسلمون فيها. وان يتبنوا خطاباً ثقافياً

واجتماعياً وسياسياً تقريبياً ووحدوياً يجسد المثلث القرآني الذهبي "التعارف، التعاون، الاعتصام". وهذا يقتضي من علماء جميع المذاهب تقديم الجوامع المشتركة بين أتباع المذاهب على الخصوصية لكل أتباع مذهب، بحيث يتقدم الإسلام على وجهات نظر المسلمين في الإسلام.

إن على علماء المسلمين السعي لكسر الصورة النمطية المشوهة عن كل مذهب وأتباعه لدى أتباع المذاهب الأخرى، وهي صورة تتضمن الكثير من الأوهام حول حجم الاختلافات والسعي لإلغاء الآخر، وهذه الأوهام يعززها ويغذيها المغالون من أتباع كل مذهب مما يوجب على علماء كل مذهب التصدي للمغالين من أتباع مذهبهم.

كما أن كسر الصورة النمطية المشوهة، يتطلب من العلماء السعي لإيقاف إطلاق الاتهامات بين أتباع المذاهب، كتوصيف بعضهم بالابتداع واتهام بعضهم الآخر بالتكفير. فقد آن أوان التوقف عن استخدام سلاح التكفير والتخوين.

كما أن على العلماء من كل المذاهب عدم نقل الاختلافات إلى الجمهور، ووسائل الإعلام، وحصرها بين أهل العلم، وفي المحافل المغلقة، والسعي لحلها بين أهل الاختصاص وتعميم ما يتم التوصل إليه من نقاط اتفاق. لذلك فإن من الضروري السعي لبناء منظومة ثقافية إعلامية، تتبنى خطاب التقريب والوحدة. بحيث تسهم هذه المنظومة في تحويل التقارب إلى ثقافة جماهيرية يومية، تبني الثقة بين المسلمين بعضهم ببعضهم الآخر وتعرّف كلاً منهم على ثقافة الآخر، على اختلاف الأعراق والألوان والمذاهب. وتربي جمهور المسلمين على قبول اختلاف الاجتهاد والتعددية، وهذا يقتضي أيضاً بأن تتبنى الجماعات والجمعيات الدعوية والاجتماعية الإسلامية مناهج تثقيفية وحدوية لبناء رأي عام ضاغط باتجاه وأد الفتن المذهبية، والتقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم. ولعل الإكثار من الزواج المختلط بين أتباع المذاهب، خاصة السنة والشيعة كما هو الحال في لبنان والعراق من أهم وسائل منع الفتن الطائفية، وتقريب المسلمين من بعضهم البعض على الصعيد الاجتماعي والحياة اليومية.

ومن وسائل التقريب بين المسلمين وإعادة الأمور إلى نصابها وترسيخ مفهوم المذهب كحالة صحية وكثمرة من ثمار حرية التفكير والاجتهاد في الإسلام الإكثار من إقامة المؤسسات المشتركة بين السنة والشيعة، خاصة في المجالين الثقافي والإعلامي. بالإضافة إلى استثمار الحب المشترك بين أتباع المذاهب الإسلامية لآل البيت ليكون هذا الحب أساساً للتقارب والوحدة التي هي الحالة الصحية التي تقطع الطريق على الطائفية، وتعيد المذهبية حالة إثراء للأمة.